الرواية الجزائرية

د/نعيم قعر المثرد

شكلت الرواية الجزائرية ومنذ ظهورها،حالة استثنائية في عوالم السرد،بداية برواية أبوليوس الأمازيغي في رائعته- الحمارالذهبي -،التي ألهمت المتخيل السردي الكوني بتعدد ألوانه ومدارسه . إن المتأمل في تحولات البنية الفنية للنص السردي الجزائري،يجد لديه خصوصية تطبع كل مرحلة من مراحله من السبعينيات إلى مابعدالتسعينيات.

مرحلة السبعينيات :

لما افتكت الجزائر استقلالها،كان لزاما على أبناء الوطن السعي لبناء وطن فتي،يكبرُ مع أحلام مواطنيه،ولم يخرج المبدعون،وبالخصوص الروائيون عن هذاالتصور،إذ ومع بداية السبعينيات جاءالفكرالإشتراكي المطعم بالفكر الثوري آنذاك،فكانت البداية التي حاولت أن تلامس من الناحية الفنية روح الرواية في ذلك الوقت،على غرار النصوص الآتية :"صوت الغرام" 1967 لمحمدمنيع وغيرها منالنصوص التي لم تكن سوى محاولات محتشمة في هذا الفن السردي.

يمكن أن نسوق هنا البدايات الحقيقية للرواية المكتوبة باللغة العربية برواية "ريح الجنوب" سنة 1971،التي حاول من خلالها الكاتب أن يتحدث عن فلسفة الهامش والمركز،وكذا الفكر الإقطاعي الذي كان سائدا آنذاك،إذ أصبحت هذه الرواية تطرح العديد من الإشكاليات التي أفرزتهاالثورة الزراعية في الأرياف وفي مناطق الظل التي لامستها هذه السياسات التي أفرزها الفكرالإشتراكي؛فتتشابك بذلك المصالح وتغدو المصلحة فوق المشاعر الإنسانية و جوهرها،كما لابدأن ننوه إلى أن روايته "نهايةالأمس" لم تشذ عن هذه المواضيع،إذطرحت قضية الإقطاعية ووقوفها وجها لوجه مع المشروع الإصلاحي .

بعد سنة من صدور رواية بن هدوقة الموسومةب"ريح الجنوب" ظهرت رواية «اللاّز" للروائي المثير للجدل الطاهر وطار،حيث يكون البطل في هذه الرواية ليس شخصا بعينه،إنما هو الشعب بأكمله و هو الثورة أيضا. فإن زيدان الشخصية الرئيسة في الرواية يقتل ذبحا من الثوار بعد أن يرفض الانفصال عن الحزب الشيوعي الجزائري،وكان شرط جبهة التحرير الوطني أن ينضم الأفراد إلى الثورة فُراد ى متجردين من انتمائهم السياسي،وهذا ما حدث مع زيدان. لكن انضمام زيدان الفردي إلى الثورة لم يكن مرفقة مع انسلاخه عن الانتماء السياسي للحزب الشيوعي،وهذاماكان مرفوضا،ومن هذاالمنطلق وقع الصِّدام بين زيدان ورفاقه الشيوعيين من جهة وقيادة الثورة من جهة ثانية،هذاالصدام الذي كانت نتيجته إعدام زيدان بمعية رفاقه وأمام عيني اللاَّز الذي ظل يقف مشدوها لايصدق عينيه، "انفجرت الدماء من قفا أبيه فصاح في رعب: «مايبقى في الواد غير حجاره» "

ففي هذه الرواية،يقدم الروائي شخصية (اللاز اللقيط) ومن خلاله يعكس واقع مجتمع هجين يتحول عن مبادئه سريعا.

إن الطابع السياسي الذي انطبعت به النصوص الروائية في هذه الفترة لا يمنع الطرح الجذري الذي اتسمت به هذه النصوص الروائية والقائم على محاكمة التاريخ أو الواقع الراهن بلغة فنية جديدة.

مرحلة الثمانينيات :

لم يكن المتخيل السردي (الرواية) بمعزل عن هذه الفترة المفصلية في تبلور البنية الفنية إذ أن أحداث أكتوبر و ما سبقها جعل الرواية تمتلك حساسية جديدة من الواقع،وبدأت ملامح هذا التميز في رواية "الجازية و الدروايش"(1983) في اتصال بن هدوقة من خلال هذه الرواية بالثقافة الشعبية والتاريخ،ممثلة في شخصية "الجازية" هذه الفتاة الجميلة التي ارتبط اسمها بالسيرة الهلالية،كما أن هذا النص تصالح مع التراث ولم يدر له بالظهر مثل بعض الروايات في ذلك الحين.

لقد نقلت رواية الجازية والدراويش النص السردي الجزائري إلى مصاف التجريب الفني في هذاالنوع السردي،عن طريق خلق مناخات جديدة للقارئ،كماأن هناك دعوةصريحةلمن تخلخلت هويتهم لقراءة هذاالنص الذي يقف موقف المتصالح مع

الذاكرة التراثية للشعب الجزائري ويقف موقف المعارض،على لسان شخصياتها السياسة الأحادية في كل الجوانب الحياتية،إذ لا صوت فوق صوت الحزب الواحد.

كتب الروائي الطاهر وطار نصا يتيما في هذه الفترة تمثل في رواية " تجربة في العشق "1988،كما تمرد واسيني الأعرج روائيا وفكريا ليقف موقف الناقد للتاريخ الرسمي،فكتب رواية "ما تبقى من سيرة لخضرحمروش "سنة 1983م،الذي يهدر فيها دم الشيوعي "لخضر" و هو من الشخصيات السياسيةالأساسيةفي هذه الرواية،كان شيوعيا نقد الحكم بذبحه المجاهد البسيط "عيسى" زمن الثورة.

كما ألف الحبيب السايح رواية" زمن النمرود" سنة 1985 ،ومن الأعمال الروائية الجزائرية في هذه الفترة أيضا أعمال الروائي جيلالي خلاص رواية "رائحة الكلب" سنة 1985م،وروايته "حمائم الشفق" سنة 1988م،كما كتب أيضا مرزاق بقطاش روايته "البزاة "سنة 1982م،و"عزوز الكابران "سنة 1989 م.

لقد مهدت الروايةالثمانينية لماسيأتي من محن للوطن وللمثقف الذي أصبح الموت ظله في فترة التسعينيات وذلك نتيجةالمطالبة بالتعدد وتكريس ثقافةالاختلاف.

رواية التسعينات :

كانت أحداث أكتوبر 1988 السياسية بوابة النار والنور بالنسبة للتجربةالروايةالمعاصرة في الجزائر،حيث أصبح الموت هواءً تستنشقه رئة الوطن كل حين..هذه الفترة تعطل فيها المسارالانتخابي ودخلت الجزائر،ونتيجةصراعات حزبيةفي نفق مظلم،حيث أصبحت تيمة السواد مهيمنة.

عاش الروائيون الجزائريون في فوهة البركان خلال هذه الفترة،ولكن ماطبع هذه الفترة كون بعض الروائيين سقطوا من دون قصد في فخ التسجيلية دون الإبداع فأصبح بذلك النص اجترارا لأحداث تمت كما هي في الواقع،ولعل رواية «متاهات ليل الفتنة»لحميدةالعياشي واحدة ممن وقعت في هذاالمأزق فاستعملت مثلا لغةالبرقيات الصحفية للتبليغ عن القتلى والمجازر،كما حذت حذوها عديد من الروايات من أمثلة : "فتاوى زمن الموت" لإبراهيم سعدي،و "الورم" لمحمد ساري و "دم الغزال" لمرزاق بقطاش .

وهناك روائيون آخرون تشرّبوا الموقف الجلل بروية وكتبوا نصوصا فائقة الجودة،من أمثال الروائي واسيني الأعرج الذي كتب رواية ضمير الغائب،ثم أتبعها برواية الليلة السابعة بعدالألف: الكتاب الأول: رمل الماية. دمشق / الجزائر 1993. هذه الأخيرة التي جن فيها سرد واسيني تبعا لجنون تلك المرحلةالدموية،فقد عاد للتراث الإسلامي لينظر لتاريخ الهزائم ويربطهابالراهن اليومي .كانت هذه الرواية بمثابةالطلقةالتي حررت تجربة واسيني أكثر حيث أنه أعلن مسايرته لترددات النص السردي الأول في الثقافةالكونية بعجائبيته وسحره وبمنطقها للامنطقي في بنائه،ذلك أن هذ االروائي منبهر بهذا الكتاب الذي استلهم من نسق الكتابة فيه الكثير؛فيغدوب ذلك واسيني من خلال روايةفاجعةالليلةالسابعة قائلاالحقيقة المرة للملك شهريار على لسان دنيازاد التي وصفها ب"تفاحةالكتب الممنوعةو لبوءةالمدن الشرسة"وأنها ختارها لتقول للملك والقارئ الوجها لآخر من رواية التاريخ ،هذاالتاريخ الذي ارتبط بالدم والبارود والتوريث غصبا في الحكم،،،لها رتدادات في هذا العصر ... كما أن هذه الرواية تنبأت بالثورات التي حدثت في الأقطارالعربية في السنوات السابقة،،وهي نص ثري بالأساطير و الحكايات والمتاهات السرديةالعجيبة.